القصص

من الفن القصصى الحديث

زوج آخر ساعة

Le Mari de la Dernière Heure

للقصصى الأنجليزى ريس ديڤز Rhys Davies

ترجمة على كامل

« ريس ديڤز من أصغر القصصيين الانجليز سناً . وهو كغيره من الكتاب الانجليز المعاصرين شديد التأثر بالمذاهب الجديدة فى علم النفس ، فتراه فى قصصه يعتمد إلى التحليل الدقيق لشتى العواطف والنزعات التى تعصف بكل نفس إنسانية . والقصة التى نترجمها له اليوم قد ترجمت إلى عدة لغات حية »

نزلت ماربة من غرفة نوم والدها وقالت لعمتها فى هدوء وحزن كعادتها دائماً :

ـ لقد مات !

ـ فرفعت عمتها (آن) عينيها من فوق الانجيل الذى كان بين يديها ، وفتحت فاها حتى آخره وقد انتابها فزع عظيم ، ثم بحثت عن منديلها ومسحت به عينيها العجوزين اللتين لا تتسربت اليهما الدموع ، ثم بكت وهى تقول :

ـ إنهم يذهبون جميعاً قبلى !

وفتحت ماربة الدولاب وتناولت منه (التريكو) وجلست أمام النار كعادتها كل مساء ، وأخذت تشتغل باهتمام برغم ضجرها وتعبها من السهر الطويل وعنايتها بالميت

فنظرت اليها عمتها وهى تكاد تصعق من الدهشة ، ودب فى جسمها النشاط وصرخت فى وجهها قائلة :

ـ تحركى يامارية ، ليس هذا وقت (التريكو) . اذهبى وابحثى عن الستائر لتغطى بها النوافذ . ويجب أيضاً أن تغيرى للميت ملابسه ونقوم له بكل ما يلزم

على أن ماربة لم تتحرك ، وبرغم أنها كانت منهوكة القوى كان يظهر عليها دلائل فرح مرير ، فقد كان يبدو لها أنها تحررت مرة واحدة من قيود عنيدة مؤلمة ، كانت تقول بصوت منخفض مخاطبة عمتها (آن) :

ـ لقد كان والدى رجلاً قاسياً يا عمتى (آن) ، وكان كل يوم عنده يوم أحد . لقد جعل من هذا المنزل (مدرسة يوم الأحد) وكم من مرات حقدت عليه وكرهته ، وكانت والدتى تشبهه . وكنت أنا بين الاثنين كأننى فى جحيم لا يطاق

فى أثناء ذلك كانت عمتها (آن) تصعد تنهدات الحزن والألم . قالت الفتاة :

ـ إنها الحقيقة المرة ، والآن وقد مات الاثنان فانى أستطيع أن أحكم عليهما . لقد جعلا منى فتاة عجوزا لم تر من متع الحياة شيئاً . فكنت لا أعرف غير الانجيل من الصباح وعند الظهر وفى المساء

كانت الفتاة تتكلم بصوت ملؤه الحقد والعداوة ، وكانت ترتعش حسرة على نفسها . كانت تفكر فى تلك الجثة الراقدة فى الطابق الأعلى والسخط مستول عليها . كانت تريد البكاء ولكن دمعة واحدة لم تجد بها عيناها . وكان وجهها الغليظ الذى بدا عليه الغضب والكبرياء منكباً على (التريكو) الذى بيدها . قالت :

ـ والآن وقد ضاعت خير أعوام حياتى فى العمل فى سبيلهما ، فسأبقى بقية حياتى وحيدة ، ولو كانا تركانى أخرج من المنزل لاستطعت أن أجد الفرصة لأتزوج

قالت عمتها :

ـ مهلاً . إنك لازلت فى الثلاثين من عمرك ، وفى استطاعتك الآن أن تجتهدى فى إيجاد زوج لك . إنك يامارية فتاة قويمة الأخلاق تحسنين الطهى . إنك لست كفتيات اليوم

الطائشات ، وهناك كثير من الرجال الذين يبحثون عن فتاة مثلك ليتزوجوها

واستمرت مارية تشتغل فى صمت . . . ثلاثة وثلاثين عاماً ! قبيحة المنظر غليظة الجسم منكسرة القلب ! أى رجل ذلك الذى يريد مثل هذه الفتاة فى هذه الأيام ؟

وتملكها خوف عظيم وهى تشتغل ، كم من الأشياء فقدتها فى الحياة ! لقد أدركت تماماً أنها كانت تعيش بعيدة عن عالم المسرات والملذات ، والآن فات وقت التمتع . ولكن ألم يعد هناك أمل فى شئ ؟ قالت الفتاة :

ـ إننى أظن يا عمتى (آن) أنه يحسن أن أبيع هذا المنزل وأقيم على ساحل البحر

فأجابت المرأة العجوز على الفور فى غضب :

ـ لا تبادرى ببعثرة المال الذى تركه لك أبوك . هلا فكرت فىّ ؟

وأجهشت العمة بالبكاء :

ـ هاهو ذا المال يامارية قد ابتدأ يجعل منك فتاة منطفئة الآمال قاسية القلب . إننى أعرف نفسيتك الآن

وخرجت العمة لرؤية الميت . وابتدأت عينا مارية الزرقاوان المنطفئتان تلمعان من جديد ؛ إن التفكير فى المال الذى ورثته وفيما يمنحه هذا المال من السلطان ، قد جعل حرارة السعادة تدب فى جسمها الغليظ . غير أنها كانت تود أن تكون أصغر سناً مما هى الآن . وكانت تعرف أيضاً أنها قبيحة المنظر

ودخلت العمة آن قادمة من غرفة النوم وهى تقول : لقد رحل إلى العالم الآخر . إن وجهه جميل وطاهر ، والآن يا مارية أى مجهز نعهد اليه بالقيام بحفلة الجنازة ؟

فأجابت مارية :

ـ جون چونز . إنه أرخص من توماس إيفانز

ـ ولكن إيفانز ممن ينتسبون إلى الكنيسة القديمة . إن الذين يحترمون أنفسهم لابد يفضلونه ، وعرباته أيضاً أكثر جمالاً .

فقالت مارية بصوت الآمر :

ولكننى أفضل چون چونز . لقد كنت معه فى المدرسة وكان دائماً معى رقيقاً

فأجابتها العمة آن وقد أخذها الغضب :

ـ إنه رجل أعزب طماع

وذهبت مارية وأحضرت الأقمشة البيضاء لتغطى بها النوافذ ، وكان ذلك علامة على أن الموت قد عرف طريقه إلى المنزل . ولم تكد تمضى عشر دقائق على ذلك حتى كان سيل الجيران قد ابتدأ يتدفق ليروا الميت . وكانت العمة آن جالسة بجانب جثته . بينما كانت مارية فى الطابق الأرضى تصغى بسخرية إلى كلمات المجاملة والعزاء التى يوجهها اليها الزائرون

قالت إحدى النساء :

ـ ولكنك سوف تكونين فى سعة من العيش ، فلقد ترك أيضاً وراءه مقادير مخبأة من المال لا بأس بها . لقد كان دائماً متبصراً يا مارية . كان يشح من أجلك

فمطت مارية شفتيها بسخرية وابتسمت ابتسامة باردة وقالت :

ـ إن كل ما هنا قد عاد إلىّ . ولكنك عديمة الفطنة يامسز هاولز . إنك تفكرين دائماً فى المال . .

آه ! مثلك أنت . إنه يبدو عليك أنك فتاة غير طبيعية من كل الوجوه يا مارية ، ألا تذرفين دمعة واحدة على أبيك المسكين ؟ ها أنت جالسة ككتلة من الثلج ، لا تعرفين الكلام إلا فى كل ما لا يتفق مع الموقف الذى أنت الآن فيه !

وكان الجيران خارج الغرفة يتكلمون عن عدم تأثر الفتاة وجمود عينيها اللتين لم تعرف الدموع اليهما سبيلا ؛ ولكن مارية كانت جالسة فى هدوء ، مفعمة القلب بالأحتقار والعداوة للجميع ، متمتعة فى أعماق نفسها بأن تكون موضع أحاديث الناس ، هانئة بذلك الدخل الذى سوف تناله عما قريب . وعندئذ شعرت أنها أصبحت مستقلة طليقة ، وفى نفس تلك الليلة آوت إلى سريرها فى فراشها الوثير باستسلام شهوانى . وكأنما الموت الذى أقبل إلى المنزل قد فتح فى أعماق نفسها منبعاً من السرور العجيب

* * *

وفى صباح اليوم التالى أرسلت مارية عمتها (آن) لتبحث عن المجهز ، فخرجت آن وهى تتمتم بعبارات السخط والغضب ، ولكنها كانت تتعزى كلما فكرت فى أنها ستفوز بخمسة شلنات ، لتشترى بها ثوباً أسود وقبعة . كانت تقول لنفسها وهى تبكى :

ـ وإن دفنه بيدى چون چونز سيقلقه فى مقره الأخير . فعرباته القديمة فرشها حقير للغاية . إنى أخجل منه

وعاد المجنز معها واستصحبته الى الدور الأعلى لكي يقيس جثة الميت ، ثم نزل الى الصالون حيث انتظر مارية

وجاءت مارية ، فبادرها بقوله :

ـ ما أكثر وقار وجهه يا مس مورجنز

فأجابته مارية فى الخيال بنظرة خبيثة قائلة :

ـ إن وجهك أنت سيكون أكثر هدوءاً ووقاراً حين يتوفاك الله !

فسألها وهو يهز رأسه الصغير :

ـ وكيف ذلك ؟ لقد عشت حتى الآن عاقلاً رزيناً

فقالت بخبث وهى تبحث له عن كرسى :

ـ لقد كنت فى المدرسة صبياً ماجناً خداعاً ، اجلس الآن ودعنا نتكلم فى الموضوع

كان چون چونز شاباً نشيطاً عصبياً أشبه بعصفور . ألقى چون چونز قبعته بجانبه ، وفرك يديه ثم وضعهما على ركبتيه النحيلتين كركبتى مراهق ، وكان يحاول عبثاً أن يتظاهر بالبرود الحزين الذى يتناسب مع مهنته ، فقد كان خفيف الحركة ، ويبدو كأنما يثقله العمل الكثير ، وكانت لحيته كأنها محلوقة متذبرهة وجيزة ، كما أنه لم يكن ناجحاً فى عمله كمنافسه

قال چون چونز ، وقد بدا على وجهه نوع من الاهتمام :

ـ أى نوع من التوابيت تفضلين ؟

وعندما نظرت اليه مارية نظرة باسمة احمرت وجنتاه وتولاه الاضطراب . سألته قائلة :

ـ كم الثمن الذى تريده ؟

كانت مارية جالسة أمامه وجهاً لوجه تناقش الأثمان عكر ودهاء عجيبين ، وقد مطت شفتيها الغليظتين ، وبدا عليها التفكير والانتباه ، مما جعله يعجب بها برغم سخطه . وبعد حساب طويل ، قال :

ـ إن كل شىء سوف لايتكلف أكثر من عشرين جنيهاً ،

فهزت مارية رأسها قائلة :

ـ ان توماس إيفانز يأخذ أقل من هذا

فقفز چون چونز من على كرسيه ، وقد تملكه الغضب وقال :

ـ إنك يهودية الى آخر حد يا مارية مورجنز ، إنه لايليق أن تكونى شحيحة هكذا فيما يتعلق بالآتم

فوقفت مارية أيضاً ، وقد احمرت وجنتاها من الغضب وصرخت :

ـ إنك تريد أن تسرق الأيتام الفقراء ، تريد أن تربح من فتاة لم يعد لها أب !

فضحك چون چونز ساخراً :

ـ أيتام فقراء ! إننى متأكد أن والدك قد ترك مالاً وفيراً ، ولكن ابنته تريد أن يدفن كما يدفن رجل معدم

وفرقع أصابعه بعصبية ، ونظرت مارية اليه طويلاً ، وقد انخفض جفناها وعاد اليها خبثها من جديد ، ثم قالت :

ـ إننى أحب أن أراك غاضباً مهتاجاً ، إنك بهذا تكون أكثر رجولة ، ولكنك الآن أكثر غضباً مما يجب أن يكون عليه (حانوتى)

كان چون چونز يسائل نفسه : كيف يترك هذا الرجل الموقر وراءه مثل هذه الفتاة الوقحة ذات اللسان البذىء ! على أنه تذكر تجارته التى كانت آخذة فى التدهور ، فقال بهدوء :

دعينا من هذا يا مس مورجنز ، كونى أكثر عدلاً ، سوف أنظم لك جنازة فخمة بتسعة عشر جنيهاً ونصف جنيه

وطلبت مارية من عمتها أن تحضر الشاى لچون چونز ، وأخرجت هى خير ما عندها من الحلوى والفاكهة وأعطته منها كمية كبيرة

* * *

وفى يوم الدفن كان المطر يسقط مدراراً ، والسماء مكفهرة ، والجو رديئاً . وكانت مارية حزينة لأنها أنفقت كثيرا من النقود فى شراء فستان أسود جميل وقبعة ، كانت تقول لنفسها بعصبية متنقلة بين الحوانيت :

ـ سوف يعرفون أنه حتى مس مورجنز الفقيرة الملبس تستطيع أن تبرهن على أنها سليمة الذوق

على أن المطر ضايقها كثيرا ، فقالت لعمتها (آن) وهى ساخطة فى صباح يوم الدفن :

ـ سأضطر للذهاب لشراء معطف للمطر وشمسية جديدة ، إننى دائماً سيئة الحظ ، فسوف يكون هذا النهار رديئاً

كان المطر يسقط والرياح تصفر بقوة شديدة بالقرب من

المقبرة ، وكانت مارية واقفة بجانب القبر متكئة بجسمها الضخم على ذراع ابن عمتها تفكر فى شمسيتها الحريرية الجديدة وتنعم النظر فى الزهور التى تداعبها الرياح ، وتفكر بحسرة مريرة فى شبابها المنطفىء . آه ! ولكن كم من الأوقات الطويلة السعيدة ستتمتع بها حين ينتهى كل ذلك ! لا ، إنها سوف لا تبيع منزلها وتعيش بعيداً ، فستكون مجهولة لا يعرفها أحد إذا ذهبت الى مكان آخر ، سوف تشترى كمية من الفساتين وتنشر (الموضة) فى الحى الذى تعيش فيه ، وتدهش صديقاتها . وسرعان مارأت نفسها تنزل الى الدور الأرضى من الكنيسة فى روعة يحسدها عليها الجميع . ولكن عند ما أخذ الجميع يرتلون الترتيلة المحزنة الأخيرة فكرت من جديد فى ألوان السعادة التى حرمت منها ؛ وأخيراً بكت ، تخفف بكاؤها كثيرا مما يثقل قلب عمتها (آن)

وعند ما أخذت مكانها فى العربة أقبل (الحانوتى) وفى يده غطاء غطى به ركبتيها وعلى وجهه أمارات التأثر ، ثم قال :

ـ إن داخل العربة بارد . إنك قادرة على كتم عواطفك بشجاعة ياعزيزتى مس مورجنز

فأجابته بشموخ :

ـ أشكرك يا چون چونز ، أظن أنه لابد لك من شلن من أجل هذا الغطاء !

وعندما دخل الجميع العربة اتجهت اليها عمتها (آن) وقد بدا عليها الغضب ، وقالت :

ـ إنك تتصرفين كما لو كنت قطعة من الخشب ، لقد أفسدت علىّ عملية الدفن ، وكنت خجلة منك الى أقصى حد

فقال ابن عمة الفتاة فى صوت متأثر :

ـ يا عزيزتى ، لقد بكت عندما كنا نرتل الترتيلة الأخيرة ،

فأجابت العمة :

ـ آه ، عندما كان كل شىء قد انتهى تقريباً . سوف يتكلم عنها كل من كانوا بالكنيسة

فقالت مارية بكبرياء :

إن كل ما يقولونه لا يهمنى ، وأنت يا عمتى (آن) عجوز مرائية ، إننى أعرفك جيداً

ثم قالت ساخرة :

ـ إن كل مافى المسألة أنك تحسدينني من أجل ثروتى لاغير !

وعند ما وصلوا إلى المنزل صعدت مارية إلى الطابق الأعلى لكى تخلع حذاءها الضيق الذى جرح أصابع قدميها . وكانت جموع الناس قد اجتمعت منتظرة الطعام الذى يعد عادة بعد الجنازة . وكانوا يعلقون بأصوات خافتة من الجوع على كل ما حدث فى الجنازة . أما مارية فقد فتحت صندوقاً مغلقاً بمفتاح ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة . وأخرجت منه علبة المسحوق الأبيض التى اشترتها بعد موت والدها ، ودهنت أنفها اللامع وخديها النحاسيين ، وهى فى غبطة وسرور من هذا الأثم الجديد . وبعد ذلك لبست قرطها بهدوء . ثم اتجهت نحو السلم فرحة منتفخة كأنها ملكة مهيأة من جديد للنزول وعليها أمارات الأبهة والجلال . وفى أثناء نزولها سمعت أصوات بعض النسوة اللائى كن يتكلمن عند المدخل بصوت منخفض ، فوقفت تنصت إليهن ، فسمعتهن يذكرن اسمها . قالت إحداهن :

ـ لقد كانت دائماً سخيفة غبية . ولكنها اليوم كانت حقاً وضيعة النفسية لا يحمل قلبها ذرة من النبل . لقد كانت معجبة بملابسها السخيفة كأنها فى حفلة زواج

وقالت الأخرى :

ـ ألم تكن تفكر أنه كان يجب عليها أن تبكى على الأقل اعترافاً بالجميل من أجل ذلك المال الكثير الذى تركه لها

ـ لقد كانت كشخصية مضحكة فى مأساة محزنة . ما هذه القبعة التى كانت تلبسها ! أى مرض فى الذوق ذلك الذى جعلها تلبس هذه القبعة فى جنازة أبيها !

ونزلت مارية بهدوء . وعند ما أحست النسوة بقدومها ابتدأن يتكلمن بأسى عن ساعة الدفن ، ونظرن إليها بعيون كلها شفقة ورثاء . فنظرت إليهن مارية ، وقد كشرت عن أنيابها وصاحت :

ـ أخرجن من منزلى يا ذوات الألسنة البذيئة . أخرجن من هنا !

فجرى النسوة من وجهها الغاضب . ولكن إحداهن صاحت لدى الباب :

ـ امسحى هذا المسحوق الأبيض الذى على وجهك ليتها الفتاة المفتونة !

* * *

وبعد أسبوع ذهب چون چونز إلى المنزل ومعه قائمة حسابه

فأدخلته مارية إلى الصالون ، ووضعت على الطاولة تسع عشرة ورقة من ذات الجنيه ، فعد (الحانوتى) النقود بعناية . ثم التفت اليها وقد احمرت وجنتاه . ثم قال رافعاً صوته :

ـ أرجـو يا مس مورجنز أن تعطيني النصف جنيه الباقى .

فأجابته :

ـ إذن قدم لى حساباً عن هذا المبلغ الضخم . لقـد كانت الجنازة متواضعة

فصاح وهو يهز قبضته بانفعال شديد :

ـ سوف أذكر لك ذلك أمام المحكمة . نعم سأقاضيك مطالباً بمبلغى أيتها المرابية الشحيحة !

كانت مارية متشحة برداء من القطيفة السوداء . لابسة عقدها وقرطها . معلقة ساعتها فى ردائها الضيق الملتصق بجسمها الفصل على آخر طراز . قامت مارية من على كرسيها وقالت بطريقتها الانجليزية الرشيقة :

ـ لست ممن يتناقشون مع الحانوتى من أجل نصف جنيه . لقد كنتُ أظن أنك رجل مهذب ولـكن يظهر أنني كنت مخدوعة

ظل چون چونز صامتاً وكأنه تذكر فجأة شيئاً . فنظر اليها بعينيه اللامعتين اللتين تشبهان عينى قرد ، وقد بدا عليـه الألم والحسرة ، ولـكن مارية خرجت من الغرفة ببرود وعادت وفى يدها كيس من التيل ، وأخرجت منـه حزمة منتفخة من أوراق البنكنوت . فنظر چون چونز الى النقود . وقال بصوت تبلله الدموع

ـ اغفرى لى ثورتى يا مس مورجنز . لقـد نسيت فى فترة غضبى الخسارة المؤلمة التى انتابتـك . يا إلـهى ! كم ستشعرين بالوحدة ، إن عمتك ليست الرفيق اللازم لفتاة شابة . هلا وضعت بعد مشروعات تقومين بها فى المستقبل ؟

لقد كان قلبه الصـغير الحساس يخفق حقيقة بحرارة رحمة بمارية التى لا أنيس لها . وابتسمت مارية ابتسامة خفيفة ، وهى تعبث بيـدها فى أوراق البنكنوت ، بينما چون چونز ينظر اليها وعليه أمارات التأثر

أجابت مارية :

ـ إننى لست متعجلة . فسوف أعيش عالى فى بسطة من العيش

فقال چون چونز :

ـ حقاً . ويمكنك أن تحصلى على ثمن جيد لهذا المنزل وللأربعة منازل الأخرى التى تقع فى طريق المناجم . إنهم خالون من حق الارتفاق . أليس كذلك ؟

فقالت مارية ضاحكة

ـ إنك تريد أن تعرف كل شىء !

وخرجت ثانيـــة حاملة معها الـكيس ، ثم عادت ومعها زجاجة من النبيذ الفاخر وطبقاً من البسكويت . صرخت مارية بنشوة وافتخار رافعة الزجاجة إلى أعلى :

ـ إنها الأولى فى هذا المنزل

فقال چون چونز ضاحكاً أيضاً

ـ لقد كان والدك مدمناً على شرب الماء !

وبينما كانا يشربان كانت مارية تنظر من النافذة بنشوة كأنها فى حلم . ولـكنها لا حظت أن الحانوتى يرمقها بنظرات عصبية

قالت مارية :

ـ لا ، إنى لم أضع بعد مشروعات . كنت أريد أن أنتقل من هذا المنزل . ولـكن فتاة غير متزوجة لابد أن ستشعر بالوحدة المضنية فى مكان غريب . أما إذا وجدت زوجاً . . . . ورفعت عينيها الذابلتين نحوه . وكان هو من ناحيته ينظر إليها بتحديق شديد

لقد كان ذلك أكثر مما كان يأمل ، فشرب قدحه سريعاً ، ثم رفع كوبته بيد مرتعشة وانحنى على ركبتيه أمامها ، وأمسك بيدها وهو يتكلم بعبارات سريعة مضطربة قائلاً :

ـ خذى يا عزيزتى مس مورجـنز . إننى أنا أيضاً أغرب وحيد . لقد أحببتك منذ أن رأيتك أثنـاء دفن والدك هادئة ووحيدة . حقاً إننى أحبك . إننى أشعر فى أعماق نفسى بشىء غريب نحوك

ـ فأخذت مارية تضحك ضحكاً طويلاً لا ينقطع ثم قالت :

ـ حسناً ! حسناً ! إنها مصادفة عجيبة . لقد كنت أعتقد ياچون چونز أنك بخيل لدرجة أنك لا تستطيع أن تحب . هل تحبنى من أجل ذاتى ؟

فقال چون چونز بحزن :

ـ إنك قاسية خبيثة

فأجابته فى الحال بحدة :

ـ أوه ! إننى لا أشعر بالحب نحو أى رجل ما . إننى أريد أن أتزوجك ليكون لى اعتبار فى أعين الناس . والآن كم يكون هذا مفاجأة عجيبة بالنسبة لأولئك النسوة جميعاً !

على فاضل